Dirassat & Abhath
The Arabic Journal of Human and Social Sciences

مجلة دراسات وأبحاث
المجلة العربية في العلوم الإنسانية والاجتماعية

EISSN: 2253-0363
ISSN : 1112-9751

ركب حج بن ناصر الدرعي بنجود وتخوم صحراء الجزائر من خلال كتابه الموسوم "الرحلة"

Haj Bin Nasser Al-Darai's rode the panhandles and Surroundings of the "Algerian desert through his book, "The Trip

موساوي مجدوب، MOUSSAOUI Medjdoub
جامعة الدكتور الطاهر مولاي بسعيدة University Tahar Moulay Saida
medjdoub70@yahoo.com

تاريخ الاستلام : 2020-10-05 تاريخ القبول : 2020-12-11

ملخص:

نهدف من خلال مقالنا هذا إلى إعطاء صورة عن رحلة ركب حج أبو العباس أحمد بن ناصر الدرعي بنجود وتخوم صحراء الجزائر من خلال كتابه الموسوم "الرحلة"؛ بالتطرق إلى ظروف رحلته ودورها في تحقيق التواصل الحضاري وتمتين روابطه بين الأفراد والمجتمعات.

توصلنا في نهاية دراستنا هذه إلى مجموعة من النتائج منها أنّ هذه الرحلة الحجية كانت مضبوطة التنظيم في تكوينها ومسيرتها من طرف شيوخ الزوايا الدينية والطرق الصوفية؛ كما كان لها أهمية بالغة في تعزيز مختلف أواصر التواصل بين الجزائر وغيرها من البلدان الإسلامية، وبصفة خاصة مع المغرب الأقصى.

كلمات مفتاحية: بن ناصر الدرعي، ركب الحج، التواصل، النجود، تخوم الصحراء.

Abstract:

Through this article, we aim to give a picture of the journey of Hajj Abu Al-Abbas Ahmed bin Nasser Al-Dara'i with panhandles and Surroundings on the desert of Algeria through his book entitled "The Trip"; by examining the circumstances of his journey and its role in achieving civilized communication and strengthening his ties between individuals and societies.

At the end of this study, we reached a set of results, including that this authentic journey was well-organized in its composition and its path by religious elders and Sufi orders, and it was extremely important in strengthening the various forms of communication between Algeria and other Islamic countries, especially with the Far Maghreb.

Keywords: Bin Nasser Al-Dara'i; pilgramage; communication; panhandles; Surroundings in the Sahara.

1. مقدمة:

سلك الجزائريون الساكنون النجود وتخوم الصحراء طُرقا ومَسالكا برية للذهاب إلى الديّار المقدسة لأداء الركن الخامس في الإسلام؛ حَج بيت الله الحرام لمن استطاع إليه سبيلا مُتحملين في ذلك الكثير من المشاق، خصوصا أنَّ هذه الطرق والمسالك لم تَلق أي اهتمام من طرف العثمانيين بتأمينها وانتظام سَيْر الحج بها وضمان سلامته. وعلى الرغم ممَّا كان يُكابده الحجاج من المعاناة والصعاب في الطريق أثناء رحلتهم إلى الحج وطابعها غير رسمي؛ إلا أنّ هذه الرحلة كانت مضبوطة التنظيم في تكوينها ومسيرتها، كما كان لها أهمية بالغة في تعزيز أواصر التواصل الثقافي والروحي والاجتماعي بين الجزائر وغيرها من البلدان الإسلامية، وبصفة خاصة مع المغرب الأقصى الذي كان رَكْب حُجاجه يَعْتَمِد هذه الطرق البرية والصحراوية، لِينضم إليهم ويلتحق بهم كثير من الحُجاج الجزائريين، فَتَتَشكل قافلة كبيرة العدد تضم فئات متنوعة من المجتمع إلى جانب العلماء والفقهاء والمشايّخ والصُّلاح وطلبة العلم، لِتُؤَدِي بهذا رحلة الحج أدوارا كبيرة متعددة ومتنوعة؛ وبصفة خاصة تفعيل الحركة

العلمية نتيجة تعايش واحتكاك هؤلاء العلماء مع بعضهم البعض طيلة مدة الرحلة الحجيّة التي كانت تدوم أكثر من عام.

وما وجب أن نُشير إليه في مقالنا هذا وهو أنّ هذه الأدوار والمظاهر التي ميّزت رحلة الناصري وجدناها لا تختلف في كثير من جوانبها مع رحلات حجازية أخرى مرت بهذه المناطق خلال العصر الحديث؛ كرحلة "ماء الموائد" للعياشي سنة 1074هـ-1663م، ورحلة "هداية الملك العلام إلى بيت الله الحرام" للهشتوكي سنة 1096هـ-1684م ورحلة "التوجه لحج بيت الله الحرام وزيارة قبره عليه الصلاة والسلام" لأحمد الهلالي سنة 1150هـ-1737م و"الرحلة الحجازية" لأبي مدين الدرعي سنة 1152هـ-1739م وغيرها من رحلات حجازية أخرى.

نَهدف من خلال مقالنا هذا إلى إعطاء صورة عن رحلة ركب حج الناصري؛ وبصفة خاصة في جُزئها المتعلق بمروره بنجود الجزائر وهوامش صحرائها، وذلك بِطرح الإشكالية الآتية: ما هي الظروف التي مر بها ركب حج الناصري؟ وما هي مظاهر التواصل التي ربطته بمجتمعات هذه النجود والتخوم؟ وفما تمثلت أدواره وأهميته؟ وللإجابة على هذه الإشكالية اتبعنا المنهج التاريخي الذي اعتمدنا فيه على التحليل والاستنتاج والوصف.

2. التعريف بصاحب الرحلة:

هو أبو العباس أحمد بن مَحمد الدرعي؛ المدعو بالخليفة والمشهور بابن ناصر نِسبة إلى جده. ولد سنة 1057هـ –1647م. إمام وعالم ووليٌّ صالح؛ تَربى في كنف أسرة اشتهرت بالعلم والتصوف ذات مكانة دينية واجتماعية؛ فأبوه هو الشيّخ مَحمد بن ناصر مؤسس الطريقة الناصرية بتمكروت، وأمه حفصة بنت عبد الله الأنصارية سليلة مؤسس الزاوية الأولى.

تَلقى تعليمه الأولي على يد والده؛ حيث درس على يده التفسير والحديث واللغة والأصول، وتتلمذ لأبي سالم العيّاشي فسمع منه صحيح البخاري وأجازه فيه. ومن شيوخه أيضا محمد بن أبي الفتوح التلمساني وأبي العباس الجزولي ومحمد بن عبد المؤمن الدرعي، وغيرهم من المشايّخ أصحاب أبيه. كما اجتمع بعلماء مصر والحرمين الشريفين وأخذ عنهم.

حَجَّ أربع حجّات وبنى عددا من المساجد والمدارس؛ وأسس خزانة للكتب ضَمت عددا من المصنفات النفيسة، كما ترك مجموعة من المؤلفات أشهرها كتابه هذا الموسوم "الرحلة" والذي دَوَّن فيه رحلته للمشرق؛ وجمع فيه كثيرا من فوائد الرحلة العيّاشية. توفي سنة 1129هـ-1717م؛ ودفن بروضة الأشياخ[1].

3. النجود وتخوم صحراء الجزائر في رحلة ركب حج بن ناصر الدرعي:

نَطْمئن كثيرا لما نَقله إلينا بن ناصر الدرعي من أخبار مُتعددة ومتنوعة خلال عبور ركبه الحجي المُختلط بين الجزائريين والمغاربة بنجود وتخوم صحراء الجزائر في رحلته هذه سنة 1121–1122هـ-1709–1710م؛ وذلك لحرصه الشديد في تقييد جميع مُشاهداته بِذكره لمكانها وزمانها وتاريخها باليوم والشهر سواء الهجري أو الميلادي، بل ذهب بعيدا في هذا بذكره حتى لتوقيتها. لقد أفادنا بن ناصر الدرعي بأهم المراحل التي يَعْبرها الحاج وأهم المسالك التي يمر منها بهذه النجود والتخوم؛ ورأينا أنّه من الضروري في مقالنا هذا أن نُحدد مَعالم هذه الطريق، فيذكر لنا أنّ أول محطات الركب التي يتوقف عندها بالبلاد الجزائرية هي العْوِينة أو القنادسة؛ والتي يذكر أنّه كان يمكث بها يومين للاستراحة وترتيب أمور الركب وتعيين أميره؛ وجرت العادة أن يكون النزول بدار الشيخ سيدي محمد بن أبي زيان. وبعدها يّجد الرَّكب السيّر للوصول إلى المحطة الثانية فجيج وهذا بعد عبوره عدد من المراحل أهمها: بشار والزيرق. وكانت محطة فجيج هي الأخرى محطة للاستراحة وقضاء الأوطار. وبعدها يُواصل الرَّكب السيّر نحو الشمال الشرقي باتجاه بوسمغون مرورا بواد درمل وأبي رزق وأم القرار الغربية ووادي القصب، لينزل الركب ببوسمغون بدار الحاج الشيخ بن المرابط مفتاحي؛ وهو من أصحاب والده والذي أَلِفَ النزول عنده سواء في مرحلة الذهاب أو الإياب.

وبعد الاستراحة ببوسمغون يّجد الرَّكب السيّر حتى يصل إلى عين ماضي بعد أن يكون قد مر على عدد من المراحل أشهرها: عين مصباح شرق الشلالات وأرباوات والكراكدة والغاسول وواد شبور. وبمحطة عين ماضي التي اعتاد الرَّكب أن يقضيّ بها يومين على الأقل للاستراحة وإراحة الإبل وتَعاهُد أخفافها لِمَا قد يَجِّل بها من النَّقْب فَتُنْعل، كانت أيضا مَحَطةً لالتقاء طرق الرَّكب الحجيّة ولا سيما الركب الفاسي أثناء مرحلة الإياب. ومن عين ماضي يتجه الرَّكب نحو بسكرة؛ بعد أن يتركوا واحات الأغواط

ذات اليمين ويفصل بينهما عددا من المراحل أشهرها: تجموت والأغواط وقرية دمت وعمورة وأولاد جلال ثم بسكرة التي أَلِفَ الرّكب أنْ يَقْضي بها هي الأخرى يومين أو ثلاث على الأقل، ومنها يتوجه الرّكب إلى توزر التونسية[2].

والملاحظ على هذه الرّحلة المُتجددة والمُستمرة؛ أنّها كانت تَبدأ دوما بعد الأداء من صلاة الفجر وتنتهي قُبيل وقت المغرب أو وقت العشاء بقليل في حالة تأخرها. وفي ذِكْرِ بن ناصر الدرعي للمراحل المختلفة والمسافات الطويلة التي اجتازها الرّكب والمدن والقرى والمواضع التي زارها أو مَر بها؛ لم يغفل في إعطائنا صورا جغرافية واضحة ودقيقة عنها بِذِكْرِ لمواقعها ومظاهر سطحها من اتساع وضيق ووعورة وخصوبة وارتفاع وانخفاض ...؛ ومختلف أنواع المحاصيل الزراعية من خضر وفواكه التي تزرع بها. كما أفادنا بمعلومات في غاية الأهمية عن أماكن توفر عيون الماء أو انعدامها لأهميتها الكبرى في مثل هذه الرحلات؛ كما قدم لنا وصفا عن خصائصها من عذوبة وملوحة وقلة وكثرة؛ وفي هذا يذكر مثلا: أنّ الماء قليل من عمورة إلى سيدي خالد وعذب وغزير من فجيج إلى بوسمغون ومُر كالحنظل بالقرب من أولاد جلال[3].

وبالرغم من أنّ بن ناصر الدرعي كان دقيقا في وصفه لجميع مُشاهداته في رحلته هذه؛ إلا أننا نَجده قد غَفل في إفادتنا بأعداد الحجاج الذاهبين معه إلى بيت الله الحرام من الجزائريين ومن المغاربة؛ وبصفة خاصة في مرحلة عبوره بنجود وتخوم صحراء الجزائر؛ ولو أننا نلتمس بعض الإشارات في ثنايا كتابه "الرحلة" تجعلنا نعتقد أن أعدادهم كانت كبيرة؛ إذا ما علمنا أن وقت الانطلاق كان مُوحدا لكل أفراد الرّكب وهو بعد أداء صلاة الفجر؛ ومن هذه الإشارات نجد قوله مثلا: "...ونزلنا المريجة بعد العصر؛ ولم ينزل آخر الرّكب إلا بعد العشاء..." [4]. وقوله أيضا: "...ونزلنا بمسوار الديّان قبل المغرب ولم ينزل آخر الرّكب إلا بعد العشاء ..."[5].

يتضح لنا من كلام بن ناصر الدرعي أنّ ركب الحج عادة ما يكون نزوله بالمواضع بعد وقت العصر أو بعد وقت العشاء في حالة تأخره؛ وذلك لحتمية ظرف الليل وحالة التَعب والإرهاق طول المسير، فيكون النزول للاستراحة وأداء الصلاة إنْ أُخرت، والملاقاة مع جميع أصحاب الرّكب وتَفَقُّد أحوالهم وسِقاية الحجاج ودوابهم وملء القِرَب بالماء والمتاجرة وغيرها من الأغراض الأخرى. والمُلاّحظ أيضا أنّ ركبه كان يَنزل بالمواضع والقرى والمدن التي يُقيم بها المُحبون في طريقته الصوفية المعروفة بالناصرية؛ وبصفة خاصة أصحاب والده أو أصحابه هو في حد ذاته، وقد أورد لنا في هذا كثير من الأمثلة منها ما ذكرناه سابقا في أنّ الركب الناصري اعتاد النزول بدار محمد بن أبي زيان بعوينة القنادسة أو بدار الحاج الشيخ بن المرابط مفتاحي ببوسمغون[6].

كما أفادنا بن ناصر الدرعي بِذكره لمختلف المصاعب والمخاطر التي كان يُواجهها ركب حجه بنجود وتخوم صحراء الجزائر وَهُم في طريقهم إلى البقاع المقدسة أو في طريق عودتهم منها وأفادنا بتقديم الحلول لها قصد تذليلها خدمة منه للحجاج القادمين بعده. هذه الخدمة كان لها الأثر الحسن في تنشيط مختلف الرحلات بهذه النجود والتخوم، ودافعا قويا في تعزيز روابط التواصل الاجتماعي بين الأفراد والقبائل من خلال تقديم النصيحة والتوجيه؛ ورأينا أنّه من الضروري التطرق إليها لأهميتها وفائدتها؛ ومن هذه الصعوبات نجد:

- عدم **معرفة المسّالك من موضع إلى آخر:**

كثيرا ما تَسببت هذه الصعوبة في تيّه وضيّاع الرّكب جلّه أو جزء منه؛ مما كان يؤدي إلى تَفرُّقه وانقسامه وزَرْع القنوط والقلق في نفوس الحجاج وازدياد المشقة والتعب وإضاعة الوقت. وقد أورد لنا بن ناصر الدرعي هذه الصعوبة في كثير من المرات؛ منها قوله: "... وَصح عند الحجيج أنّ مفازة سيدي خالد لا يَسلكها ركب إلاّ ويَضيع ..."[7].

ظاهرة تَيْهُ الرّكب وضيّاعه كان في مرات بوجود الدليل وهذا ما يَعْكِس لنا صُعوبة ووعورة هذه المسّالك بهذه النجود والتخوم؛ وفي هذا يذكر لنا بن ناصر الدرعي أيضا أنّ دليل الرّكب محمد بن هدان الجريري من قبيلة حميان ضلّ الطريق بعد النزول بالصَّفَيْصِيفَة والبلاد كثيرة العقبات. وكثيرا ما كان التيّه يَتسبب في موت الجمال أو ضيّاعها؛ مما يُجبر الرّكب على اكتراء أدلاء بحثا عنها لقاء أجر معلوم، فتكون زيادات أخرى في النفقات وهو الذي حدث مع هذا الدليل المذكور مع الحاج برمضان الجابوصي، إذ جعلوا له مثقالا لكل حيوان وعادة ما يتم العثور عليها. وفي حالات الضيّاع وافتراق الرّكب كان يُشَيَّع رَجُلا للإخبار؛ مثل مَا شُيِّع رجل من سعيد رياح. وجرت العادة في مثل هذه

الحالات وتَعَذُرها أن يكون التلاقي بين المتفارقين في الموضع الأول مُباشرة بعد مكان التيّه والضيّاع؛ ولهذا نجد أنّ الحُجاج لجأوا إلى اكتراء الأدلاء لهدايتهم السّبيل كما ذكرنا، وحتى يتفادوا هذه الصعوبة المُتعبة. وفي هذا نجد كثير من الأمثلة في كتاب رحلة الناصري منها؛ أنّ ركبه استأجر رجل بمثقال اسمه محمد بن عيسى للوصول بهم من فجيج إلى بوسمغون؛ واستأجروا رجل آخر اسمه سيدي محمد المختار ورجل من أولاد سيدي الشيخ للوصول بهم من بوسمغون إلى أرباوات، واستأجروا رجل اسمه مسعود بن صالح بريال للغرض نفسه من الزرايب إلى توزر. كما اصطحب بن ناصر رجل اسمه محمد بن مبروك لِيَهديَ الرّكب الطريق من مسجد سيدي عقبة إلى الزرايب. وفي الغالب كان الرّكب يَختار الدليل من أبناء المنطقة وتُشترط فيه صفات منها؛ الدين والأمانة والشجاعة وهي الصفات التي كانت متوفرة عند طلبة العلم وحفظة القرآن الكريم أو عند الأشراف والمرابطين[8]، كما كان يُشترط في الدليل أيضا أن يكون على دِراية بشعاب الأرض ومسّالكها ومعرفته للقبائل وعاداتهم وموارد المياه وغيرها من شروط أخرى؛ وهذا مقابل أجر معلوم ومتفق عليه بين الطرفين.

لقد ساهم الأدلاء بصورة مباشرة بأدوار كبيرة بنجود وتخوم صحراء الجزائر؛ هذه الأدوار عزّزت عمليات التواصل التي اتخذت أشكالا متعددة، إذ عملوا على توثيق العلاقات بين أفراد ركب الحج فما بينهم من جهة وبينهم وبين ساكنة هذه البلاد من جهة ثانية؛ وذلك بإزالتهم لكل المخاوف والمشاق والحيرة التي كانت تُلازم الحُجاج وهم في طريقهم إلى المشاعر المقدسة، وزرعهم للطمأنينة والراحة التي كان لها الأثر الحسن عليهم.

- الظروف المناخية:

كثيرا ما أشار الرحالة ووفود الحجيج الذين مروا بنجود وتخوم صحراء الجزائر إلى مُعاناتهم الكبيرة؛ بسبب قساوة المناخ بهذه البلاد من برودة شديدة وجفاف وحر، والذي كان يتسبب في موت البعض منهم؛ هذه الخصائص المناخية لم تتغير منذ زمن بعيد إلى يومنا هذا، وقد انعكست سلبا على النبات الطبيعي وعلى الزراعة بوجه عام بهذه المناطق. ويذكر بن ناصر الدرعي في كتابه "الرحلة" أنّ مُعاناة أفراد ركب حجه كانت تبدأ في مرحلة سيّرهم من بوسمغون إلى أرباوات؛ بِسبب شدة البرد وكثرة الثلج والرياح، إذ يذكر أنّ الثلج كثيرا ما كان يُغطي ظهور الإبل والدواب، والمعاناة من شدة الرياح والزوابع الجافة المحملة بالتربة والرمال بالأغواط وكان قد أخبره فقيها سيدي أحمد بن أبي زيان أنّ الرياح ذهبت بقرية كاملة كانت قرب قريتهم قبل هذا الزمان ولم يبق لها أثر[9]. وفي موضع آخر يقول: "...ونزلنا شرقي وادي عبد المجيد بأميال...هاجت ريح شديدة قلعت الأخبية وكفأتها؛ وأمطرت السماء واشتدت الظلمة وفزّع الناس..."[10].

كما عانى الحجاج أيضا من السيول الجارفة للأودية؛ وقد أشار إلى هذا بن ناصر الدرعي في كثير من المرات؛ منها قوله: "... ونزلنا شرقي وادي المنصف وبات الرّكب على ربوة مستطيلة ونشز مرتفع خوفَ الغرق ... وأمطرت مطرا غزيرا حتى رد البغال عن وجوهها وأوقفها عن المسير ..."[11]. وفي إشارة أخرى يقول: "... وجدنا وادي بسكرة سائلا وخضناه بمحل صعب ولكن الله سلم..."[12]. ويذكر أيضا أن رجلا من أولاد بن حرز الله لحق بالركب وأخبرهم بشدة ما بالطريق من الوحل وأنه لا يسلك به رجل ولا جمل. وعن سيول وادي دمت يقول: "... وسرنا أميالا ظهرت سحابة وطفاء أمامنا في رعد قاصف تمطر ... وعاقت الركب عن المسير وصدت عن صوبها الجمال والرجال والبغال والحمير ترمي بماء على الوجوه ..."[13]. هذه السيول الجارفة كثيرا ما كانت تتسبب في صعوبات كبيرة للحجاج وإضاعة للوقت بإجبارهم على التوقف مرارا وعدم استطاعتهم مواصلة السيّر، كما أن البعض منهم كان يفقد حمولته بسببها إثر اجتياز الواد، وهو ما حصل مثلا مع حاجٍ عند اجتيازه لواد دمت[14]. وتفاديا لهذه المشاكل اجتهد الرّكب بالعمل على إصلاح سواقي الأودية وتهيئتها للمجاز؛ وفي هذا يقول بن ناصر الدرعي: "...وأضحينا على ساقية وادي أوماش عند المجاز بعد أن أصلحناه وهيأناه..."[15].

كما عانى الحجاج أيضا من العطش بِسبب قلة الماء؛ فكثيرا ما كانت تتعرض قِربهم للتمزق والتّلف لطول استعمالها ويضيع ماؤها، إلى جانب جفاف الغدران. هذه المعاناة كثيرا ما كانت تُواجههم في المنبسطات والمفاوز الخالية من أي أثر للماء؛ وأجبرت مُنادي الرّكب دوما أن يُنادي فيهم بأخذ الاحتياطات اللازمة؛ منها ندائه هذا لأفراد الرّكب: "...احملوا من الماء ما تبيتون عليه؛ ولا تغتروا بالغدران فكثيرا ما قطعت بأصحابها وغدرتهم ..."[16].

- انعدام الأمن:

انزعج الحجاج كثيرا وتضايّقوا من ظاهرة قطع الطريق واللصوصية وغَدْر الأعراب وإيذائهم لهم بنجود وتخوم صحراء الجزائر؛ مما كان يُجبرهم على حمل السلاح للدفاع عن أنفسهم واستئجار الأدلاء للتصدي لهذه المخاطر، خصوصا وأنّ الرّكب كان مُغري جدا لما يحمله من الأمتعة والأموال والسّلع المتعددة والمختلفة. وقد أشار بن ناصر الدرعي لهذه الظاهرة الخطيرة في كثير من المرات؛ منها قوله: "...وبتنا بموضع يُقال له المتسعة (قريب من الأغواط)؛ وشوشّت السرقة على الرّكب وعوت من كل ناحية، وأخذوا بغلة سيدي الدخيسي الشقروني وحمار سيدي محمد بن رزوق المراكشي ومفرشا لابن علي الفيلالي المنوجي...ولما حل النهار تبعهم بعض الحجاج ورموهم بالبنادق..."[17]. كما يذكر أيضا أنّ بعض الأعراب بسيدي خالد غدروا بهم؛ وأخذوا فرسّين للزاوية باستعمال القوة والقهر؛ وفي هذا يقول: "...ثم بتنا الغيفك...أعرابا هناك غدروا بعدما أعطوا مواعيد ومواثيق...، أَنْ لا يؤذوا أحدا من أهل الرّكب... "[18].

هذه الصعوبة واجهها أفراد الرّكب بالتحلي باليقظة والحذر؛ وبصفة خاصة في النقاط التي اشتهرت بالخديعة والسرقة، كمنطقة عمورة بالقرب من مزارع أولاد جابر أو وادي عبد المجيد الذي عُرف عن بعض سُكانه التعرض للركب بالليل وسرقتهم، إلى جانب الدور الايجابي لسكان النجود والتخوم؛ فكثيرا ما كانوا يجتهدون في رد المسروقات لأصحابها بعد مدة، فيذكر بن ناصر الدرعي مثلا أنّ رَجُلا من نائلة أتى بالبغل المسروق ليلًا بعد الصدود وأخبر بأن سارقه صحراوي، فأخذوه منه وبعثوه به معه للرّكب[19].

- تعب وموت الدواب:

كثيرا ما عانى الحجاج أيضا من تعب ومرض دوابهم بسبب مشقة طول المسافة وصعوبة المسّالك من جهة ومن النباتات المُضرة والقاتلة لدوابهم من جهة ثانية؛ كنبات الدريّاس المنتشر بواد شبور وتجموت ودمت وغيرها من المواضع الأخرى، وفي هذا يذكر بن ناصر الدرعي أنّ ناقة من خِيّار إبل الحاج أحمد بن علي السلوي سباطة أكلت الدريّاس بِدمت قَتَلها وقَطَّع أمعاءها؛ أخبر أنّه رآها تَقْذف أمعائها مع أرواثها. وكثيرا ما كان هذا النبات سَببا في امتناع الرّكب عن تلبية دعوات الضيّافة لأعيّان هذه المناطق في النزول عندهم. هذه الصعوبات والمخاطر غالبا ما كان يُعَبِر عنها بن ناصر الدرعي عندما يجتازها بسلام بقوله: "الحمد لله والشكر لله"؛ ويدعوا بالعودة الميمونة لنفسه ولأصحابه[20].

4. مظاهر التواصل الحضاري في ركب حج بن ناصر الدرعي بنجود وتخوم صحراء الجزائر:

قدم لنا بن ناصر الدرعي في ثنايا كتابه "الرحلة" الكثير من الإشارات التي تتضمن المعاني السّامية للتواصل الحضاري والفكري بين مختلف المجتمعات القاطنة بنجود وتخوم صحراء الجزائر وأفراد ركب حجه؛ هذه الإشارات وجدناها هي نفسها مُكررة في كتب رحلات حجازية أخرى، وقد سبق وأن ذكرنا بعضا منها في مقدمة مقالنا هذا على سبيل المثال لا على سبيل الحصر. ومما ذُكِرَ عن هذا التواصل المتبادل نجد:

أنّ هذا الركب المختلط في حُجاجه بين المغاربة والجزائريين؛ كان يَحظى باستقبال حار وبهيج أثناء مروره في الذهاب والإياب بمدن وقرى ومواضع هذه النجود والتخوم في أجواء احتفالية أخوية ودينية؛ وذلك لمكانة الحاج الكبيرة والبقاع المقدسة في نفوس هؤلاء السُكان المستقبلين والذين كانوا يخرجون عن طواعية لملاقاة الحجاج؛ أفواجا وفرادى وأزواجا وشيوخا وكهولا وشبابا وأطفالا ورجالا وركبانا والفرح بهم. ويفيدنا بن ناصر الدرعي بأنّ المُستقبلين كانوا يأتون حتى من مناطق بعيدة عن نقاط سيّر الرّكب؛ مثل ما حدث مع أهل تيوت وأهل سيدي أبي الدخيل بالعين الصفراء أو ما حدث مع سيدي محمد بن منصور المكادي الزواوي وأصحابه من أولاد صولة مع الأشراف الكائنين بمسجد سيدي عقبة؛ والذين انتظروا قدوم ركب الحج قُرابة نصف شهر بمسجد سيدي عقبة لملاقاتهم أثناء رجوعهم من أداء المنّاسك.

هذه المظاهر العفوية التي كانت تُميّز ركب الحج كل عام؛ ما هي إلا تعبير صادق لتواصل المجتمعات والقبائل المختلفة فيما بينها ودعم وتمتين للروابط الاجتماعية وترسيخ للعلاقات الأسرية بين المجتمعين الجزائري والمغربي ومظهر من مظاهر التآخي والتراحم ومُساهمة في التعارف والتواصل والتعايش بين

جميع الناس على اختلافهم. لقد كان لهذه المظاهر الأثر الجد حسن على الحجاج بالحفاظ على رابطة التواصل التي كانت تجمعهم وتقويتها؛ كما كانت تَمدهم بِشُحن معنوية كبيرة ودوافع تحفيزية قوية في مواصلة الرحلة الطويلة والشاقة بصبر وعزيمة.

ولقد كان هؤلاء المستقبلون يبُالغون في الإكرام بتقديم أجود ما عندهم من الفواكه والطعام واللحم والشيّاه والسمن ...؛ وهذا ليس بالغريب على قاطني هذه البلاد من النجود والتخوم الصحراوية؛ فالكرم عندهم يُعتبر من أفضل العادات التي ورثوها والتي تَعكس بصدق طيبة نفوسهم وسماحتها وتواصلها مع غيرها؛ وكثيرا ما كانت تُوزع هذه الإكراميّات في مرات على المستحقين من الرّكب على الفقراء والمساكين وتَفَقُّدِ أحوالهم، وفي مرات أخرى تُقسم على كل الحجاج بدون استثناء أو تمييز. كما نجد أنَّ بعضا من هؤلاء المستقبلين كانوا يَخُصون بالاسم أفرادا لِهَديتهم مثل ما حدث مع أهل الغاسول الذين أكرموا أفراد الرّكب وخصّوا سيدي عبد الكريم التواتي بتسع شيّاه والسمن. ويذكر لنا أيضا أن رَجُلًا من أولاد صولة لُقب من طرف الحجاج بأبي الأضياف؛ لِشدة كرمه وسخاءه وحبه للخير وأهله، فكثيرا ما كان الحجاج يأوون إليه ويأنسون به ويطمئنون لديه[21].

هذا الكرم المألوف لم يقتصر على أفراد الرّكب فقط؛ بل شمل حتى دوابهم وقد ذكر بن ناصر الدرعي في هذا الكثير من الأمثلة؛ منها قوله عند نزوله بالقرب من الغاسول: "... وبعض الشعير دفعناها لجمّال يعلف بها جماله ..." [22]. وفي موضع آخر يقول أنّ المُحّب سيدي محمد بن عبد الله وسيدي أبي يعزى من أهل الشلالة قَدَّما للرّكب نصف حمل من الشعير[23]. وإلى جانب رغبة المقيمين في استقبال وإكرام وإطعام أصحاب الرّكب؛ نجد أنّه كانت لهم أغراضا أخرى كطلب الدعاء ونيل البركة من الحجاج، خصوصا وأنّ فيهم كثير من العلماء والفقهاء ومشايّخ الزوايّا الدينية والطرق الصوفية والأشراف وغيرهم؛ ونجد في هذا أمثلة عديدة منها؛ أنّ أولاد جلال تعرضوا الرّكب طالبين الدعاء؛ كما ذكر أنّه عند مروره بمليلي أتاهم المُحب سيدي عبد الباقي وسيدي محمد ومعه لوحة يطلب بدؤها لولده قصد نيل البركة؛ كما ذكر أنّ أهل أم القرار القبلية اشتكوا للركب من الحُمى التي أضرتهم كثيرا. كما كان الغرض أيضا من استقبال ومُلاقاة الرّكب؛ تزويدهم بالأخبار المختلفة عن المواضع والبلدان التي سيصلونها؛ وفي هذا نجد مثلا أنّ السيّد محمد بن أبي نوة أَخبر الرّكب على موضع حَجَاجُ الذي يَليق بالدواب عند خروجهم من قرية أم القرار القبلية، بعد أن كانوا يرغبون في المبيت في واد القصب. كما أَخبر رجل من أولاد بن حرز الله الرّكب بشِّدة ما بالطريق من الوحل؛ وأنّه لا يَسلك به رجل ولا جمل، فمال بهم ذات اليسار وسلك بهم طريقا مُترملة. كما نَبه أفراد الرّكب عند مرورهم على مزارع أولاد جابر من سرقة أهل عمورة. وكان القصد من هذه الأخبار؛ هو التعاون والتواصل بين المُقيمين من جهة والحُجاج من جهة ثانية في نقل المعلومات وذلك لتذليل ما يعترضهم من صعاب والتخفيف منها والوقوف بجانبهم وضمان سلامتهم.

كما كانت مواضع نزول ركب الحج عبر مراحله المختلفة بنجود وتخوم صحراء الجزائر تُعطي فرصة لأفرادها وآخرون للالتحاق والانضمام مع الرّكب لأداء مناسك الحج وقد أشار بن ناصر الدرعي كثيرا إلى هذا؛ منها ما ذكره عندما نزل بالغاسول وَجَدَ كل من سيدي عبد الله بن سحنون وابنه سيدي الهاشمي، وهما من علماء الرّاشدية ينتظرون الرّكب للانضمام إليه[24]. كما كان النزول بهذه المواضع فرصة أيضا للمقيمين لأخذ أوراد وأذكار الطريقة الناصرية من مشايخها ومناسبة حسنة يتطلع فيها المُحب إلى ترقيته في رتبة أعلى، وهو الذي حدث مثلا مع المُحب سيدي عمر بن عبد القادر من أهل عين بني مغيل والذي أعطاه بن ناصر الإذن في تلقين الأوراد نيابة عنه[25]. ولخدمة هذه الأغراض النبيلة؛ كثيرا ما كان المقيمون يبيتون عند موضع مَبِيت الرّكب مع أولادهم ويحرصون على مُرافقتهم في مُواصلة سَيرهم أميالا كثيرة نحو المواضع الجديدة، خصوصا في ظل المخاوف التي كانت تُلازمهم في الطريق لانعدام الأمن وتَحَمُّلهم المشاق حتى وصولهم البقاع المقدسة؛ ونجد الكثير من الإشارات في ثنايا كتاب "الرحلة" إلى عَدَدٍ من الأسماء لشخصيات وعائلات حَمَلت على عاتقها تأمين الحماية لرّكب الحج في سَيره من مرحلة إلى أخرى. هذه السلوكات والتصرفات المتعددة عَبرت عن التواصل المتين الذي ربط الأفراد والمجتمعات فِما بينهم وعلى اختلافهم وما هي إلا مظهر من مظاهر الأُلفة والمحبة والمؤازرة والمؤانسة والاحترام الذي لقيّه ركب الحج؛ والتي سَاهم فيها أهل الخير والبر مَرضاةً لهم لله تعالى من جهة وتيسيرا منهم للرحلة الحجيّة وتذليل

مصاعبها من جهة ثانية. وبقدر ما كانت هذه السّلوكات والتصرفات عفوية من المقيمين إلى الحجاج؛ فإننا نراها أنها تدخل ضمن عمليات التشجيع والتحفيز ورفع المعنويات لإخوان لهم في العقيدة والدين وتساهم في تعميق معاني الوحدة.

أما بخصوص أغراض أفراد الرّكب من نزولهم بالمواضع والقرى والمدن التي كان يُشترط فيها أن تكون مُنَاسِبَةً لهم ولدوابهم فهي الأخرى تَعددت؛ فإلى جانب أنها مَثلت محطات لاستراحتهم من طول السّفر وإراحة لدوابهم، فإنّها كانت محطات لقضاء الأوطار المختلفة؛ فكثيرا ما كانت تُودع الإبل عند أهالي هذه المواضع، وهو ما أفادنا به بن ناصر الدرعي مثلا أنّه أودع ثلاثة من الإبل عند سيدي الهاني بن الحفيان[26] وأودع بعير كَلَّ لأولاد الحاج مبارك عند سيدي محمد بن عيسى بن يحي بن حرز الله. وقد كانت تُراعَى كثير من الصفات عند الذي تُودع عنده الأمانة كالخُلق الحسن وفي الغالب كان من حفظة كتاب الله القرآن الكريم. كما كان النزول بالمواضع المختلفة فُرصةً أيضا للتسّوق من بيع وشراء وهو ما ذكره لنا أيضا عند نزوله بزريبة الوادي بقوله أنّ أعراب الرّكب تسوقوا بجميلات. وفي موضع آخر يذكر أنّ الرّكب التقى بفارسين من أعراب رحمان... طلبوا المبيت بقربهم ليتسَّاوَقوا معهم لِما بأيديهم من الإبل وغيرها.

كما كانت هذه المواضع تتم فيها اجتماعات أعيّان الرّكب؛ لِيَّسْتَخبر الناس شأن الطريق والتأكد من سلامتها ولا سيما فيما يتعلق بالماء وحالة المسّالك، كما كانت فُرصة لرد الديون وبصفة خاصة عند الرجوع من أداء فريضة الحج؛ وفي هذا نجد مثالا في قول بن ناصر الدرعي: "...وبعث لنا أهلنا مع وكيلنا سيدي عبد العزيز ما أبرأ الله به ذمتنا مما استلفناه بطرابلس أبرأ الله ذمتهم من جميع التبعات..."[27].

وإلى جانب هذه المنّافع الاجتماعية الجليلة؛ نجد أنّ هذا الرّكب كانت له منافعا أخرى خصوصا وأنّه كان يضم العلماء والفقهاء والمتصوفة والطلبة والذين كانت لهم مُساهمات بَالِغة الأهمية في تحقيق التواصل العلمي والثقافي وتمتينه بين البلدان وتنشيط الحركة العلمية بهذه النجود والتخوم؛ إذ لم يبخلوا على الحجاج والمقيمين في تعليمهم أمور الدين والصّلاة بِهم وتبصيرهم بما يستجد عليهم من إشكالات في مسائل مختلفة ومنح الإجازة لمن يستحقها. ونجد في هذا مثالا في قول بن ناصر الدرعي: "... وسُئلت عما يقول المصطفى –صلى الله عليه وسلم– مع مسح الجبهة إثر الصلاة؛ وأخرجت عمل اليوم والليلة والكلم الطيب للإمام السيوطي وجرى ذكر المصافحة ... وسُئلت عن الكيفية في الذكر الوارد فأجبت ...، وطلب منا بعض من حضر من أصحابنا أخذ ذلك إجازة فيه فصافحتهم وأجزتهم "[28].

كما اهتم أفراد ركب الحج بقراءة القرآن الكريم وترتيله؛ فكثيرا ما كان الحجاج يقومون بالسّلكة عند نزولهم ومَبيتهم بالمواضع الجديدة؛ فيذكر بن ناصر أن جماعة من أولاد سيدي طيفور بن عيسى وهم من ذريّة أبي يزيد البسطامي قَدِموا لزيّارتهم وَأَتَوْهم بأربعة كباش، تُرِك اثنان منها للسّلكة[29]. هذا الفعل أكده لنا أيضا العيّاشي في رحلته الحجيّة لسنة 1072هـ-1662م مع الرّكب الناصري؛ بقوله: " ... فلا شُغل لنا إلا مُدارسة القرآن ومُذاكرة الإخوان في علم الأديّان، نَختم كل ليلة ختمة من القرآن العظيم في خبائنا دون الحزب الراتب ". كما كان كثير من أصحاب الرّكب يُمثلون خِزانات لِلكتب المُتنقلة؛ خصوصا العلماء والمشايّخ منهم لما يحملونه في صدورهم من علم غزير وذكر نافع.

وقد اهتم الحجاج في رحلتهم أيضا بِشراء ونَسخ ما لم تَحزه أيديهم من الكتب والمصنفات في مختلف العلوم؛ باعتبار أنَّ الكتاب هو من أهم وسائل المعرفة وركيزة حضارية مُهمة في تواصل الأفراد والمجتمعات؛ وفي هذا يذكر بن ناصر الدرعي في كتابه "الرحلة" أنّه كَلَّف سيدي علي بن محمد بن أحمد الراشدي صنو القاضي سيدي محمد الذي عزله المولى عبد الملك؛ بِنَسخ كتاب "شرح دلائل الخيرات" وكتاب "تنبيه الأنام" لأحمد بن أبي بكر السكوني الفجيجي بعد أن اشترى الكاغيد من فجيج. وَيَذكر أيضا أنّه في حجة عام 1096هـ-1685م؛ ترك والده بعين ماضي كتابه الموسوم: "غنيمة العبد المنيب في التوسل بالصلاة على النبي الحبيب" بغرض نسخه[30]؛ إذ تطلعت هذه البلدة في نهاية القرن 17 وبداية القرن 18 الميلاديين بدور الحاضرة العلمية الكبيرة والتي كانت تزخر بوجود فقهاء وعلماء كثيرين ساهموا في الحركة العلمية.

ومن مظاهر التواصل الثقافي بين ركب الحج وأفراد ومجتمعات نجود وتخوم صحراء الجزائر الزيّارات والملاقاة مع علماء ومشايّخ وأعيّان المناطق التي نزل بها الرّكب أو مَرَ منها؛ كالمُلاقاة مع كبير عين ماضي سيدي أحمد بن الدهصاء وأولاده

الفقهاء عبد الرحمان ومحمد وزروق، والملاقاة مع فقهاءها وهم؛ سيدي أبو حفص محمد بن عيسى وصنوه أبو القاسم وسيدي عبد الرحمان بن دلس وسيدي عيسى بن يحي وسيدي بلقاسم ابن عيسى وسيدي عيسى بعكاز وهو مؤدب الأطفال. والمُلاقاة مع فقهاء الأغواط ومنهم؛ محمد بن كسيمة وأحمد بن إدريس ومحمد بن خليفة والحاج عبد الرحمان الفجيجي وإسماعيل العينماضي وسيدي محمد بن أحمد بن يحي وسيدي أحمد بن محمد بن أبي زيان؛ والملاقاة مع الأَحّبة بأولاد جلال؛ كسيدي محمد بن الحاج وسيدي عبد الباقي وسيدي محمد بن عيسى وسيدي محمد سعيد.

كما ذكر بن ناصر الدرعي أيضا أنّه استقبل إمام قرية دمت سيدي محمد بن مسعود وإمام تجموت سيدي أحمد بن بركة والشيخ سيدي يحي شَيْخ منطقة العسّافية. وأنّه التقى مع فقهاء بسكرة ومنهم؛ سيدي عبد الواحد الرماني الذي قال عنه العيّاشي أنّه قرأ عليه أول صحيح البخاري من رواية أبي ذر[31]. كما التقى الرّكب الناصري بفقيه مليلي سيدي عبد المعطي وبمرابط أولاد جلال سيدي محمد الحاج[32] وزار أولاد سيدي النّاجي الذين وصفهم العيّاشي قبله في رحلته بأنهم أهل خير وبركة ولهم رغبة شديدة في العلم والتعلم[33]؛ ومنهم سيدي بلقاسم بن محمد بن المبارك وسيدي محمد الهاني وسيدي الهاني بن الحفيان وسيدي عبد الحفيظ بن الطيّب وشقيقه سيدي ناجي وسيدي محمد بن الطيب وسيدي المبروك وسيدي مسعود وسيدي أبو بكر وهؤلاء أشقة؛ والفقيه سيدي عيسى بن محمد بن مبارك وابنه سيدي مسعود، وغيرهم من المرابطين وإمامهم ومدرسهم سيدي أحمد بن عمرو والأخ سيدي رمضان.

ومن مظاهر التواصل التي أفادنا بها بن ناصر الدرعي أيضا؛ زيّارته لِلصُلحاء كزيارته لسيدي أبو طيب نصير الذي قال عنه العيّاشي قبله أنه لَمْ تَرَ عَينه –قبله ولا بعده– أَمْثَل منه في هديه وسمته، تخشع القلوب لوعظه وتلين لكلامه ولو كانت أقس من الحجر[34]. وزيّارته لصُلحاء بسكرة كسيدي محمد الصالح وولده السيد علي، وسيدي محمد بن أبي علي وسيدي قاسم الذي كان أمير الرّكب في زمانه وسيدي عبد الرحمان وسيدي أبا الفضل وسيدي محمد الموفق وسيدي الصحابي وسيدي علي الأوداشي[35].

كما كان ركب الحج يُعطي فُرصة لِمُحبي وَمُريدي الطريقة الناصرية بنجود وتخوم صحراء الجزائر بالالتقاء والتواصل مع مشايّخهم والاستفادة منهم؛ ومن هؤلاء المحبين نجد سيدي عبد الباقي وسيدي محمد من أولاد جلال وسيدي محمد بن موسى الاسحاقي وسيدي مسعود من أولاد سيدي أبي يعزى وسيدي عبد القادر المكلدي وسيدي عبد الكريم التواتي وسيدي محمد بن عبد الله وسيدي أبي يعزى من الشلالة[36]. كما نجد أنّ الرّكب الناصري اهتم أيضا بزيّارة الأضرحة والخلوات؛ بقصد التبرك بأصحابها وبآثار الصالحين، إذ مثلت عندهم مزارات مُبجلة، إلا أنّ قضية الوقت في مرات كانت ترهقهم وتمنعهم من زيّارتها سواء في مرحلة ذهابهم أو إيابهم من أداء مناسّك الحج؛ وفي مرات أخرى الخوف من غَدْر الأعراب لهم. ومن هذه المزارات التي اعتادوا الذهاب إليها خلوة أبي زيد سيدي عبد الرحمان بن الصغير الأخضري وضريح سيدي عقبة ونبي الله سيدي خالد بن سنان وكان قد ذكره العيّاشي في رحلته بأنّه من المزارات الشهيرة في تلك البلاد تقصده الأركاب للزيارة من نواحي إفريقية كلها[37]. لقد كان في هذه اللقاءات والزيّارات مع العلماء والمشايّخ والصالحين فوائد كبيرة في تقوية المحبة في الله تعالى ولو بعد وفاتهم، وما هي إلا تعبير صادق في التواصل بين الأفراد والمجتمعات لما يحصل منها من منافع.

ومن المظاهر الأخرى التي تُؤكد لنا هذا التواصل في ركب حج الناصري بهذه النُجود والتُخوم الصحراوية بالجزائر والتي ساهمت بدورها في تمتين العلاقات الثقافية والاجتماعية بين المجتمعين المغربي والجزائري، نجد تدخلات واجتهادات فقهاء الرّكب في تسويّة وإصلاح كثير من السلوكات والمعتقدات التي كانت تُثير انتباههم والعمل على رد الأمور إلى نصابها؛ خصوصا تلك التي كانت لها علاقة بقضايا الشريعة الإسلامية ومنها؛ ما ذكره لنا بن ناصر الدرعي في اعتقاد الحجاج في مَفازة وادي سيدي خالد بِأن تُقدم لها شاة حتى لا يَضيع حي آدمي أو غيره. ويُفيدنا بأنَّ هذا الاعتقاد باطل؛ لأنّ الأمر بِيد الله تعالى لا تأثير لِشيء من مخلوقاته في أمر ما؛ ويُحذر كل من ينسب التأثير لغير الله[38]. كما يذكر أنّ أهل دمت كانوا يُؤْذُون الحجاج فِيما سبق؛ إلا أنّهم تابوا عن إذايتهم بعد أن قَدموا لهم النصح. ومن العادات السيئة التي تم إصلاحها أيضا؛ عادة عدم مُبالاة نِساء عين ماضي بالحجاب واختلاطهم مع الحجيج في الأسواق للبيع والشراء

وذلك في حجته سنة 1096هـ-1685م؛ إلا أنَّ هذه العادة تَخَلَّوْا عنها بعد أن كَلمهم ونَصحهم وزَجرهم فيها؛ إذ يقول أنّه لم يرى أي امرأة تتعاطى البيع مع الحاج بالرّكب في حجه هذا ويذكر أنَّهُن خَجلن من الحجاج.

ومن التدخلات التي ساهم فيها ركب الحج أيضا؛ مسائل فض النزاعات والصلح بين المتخاصمين، باعتبار أنّ الصلح بين الناس يُعد من المنافع العامة ومن المجالات التي تُعزز وتُقوي روابط التواصل الاجتماعي، وذلك من خلال قَطْعِ أسباب الضغائن والشحناء. فالصلح يُعيد للمتخاصمين الوئام ويجعلهم متواصلين ومتعاونين فهو إصلاح للمجتمع كله، مما يؤدي إلى مَتانته وقُوته بتآلف أفراده وتماسكهم وتواصلهم. ومن هذه التدخلات يَذكر بن ناصر الدرعي بأنّه أثناء عودته من الحج وجد أهل بوسمغون في غاية ما يكون من الشِّقاق والفراق والنزاع والاختلاف؛ إلاّ أنّهم مَلوا من ذلك وكرهوه ورغبوا في الإصلاح واستحسنوه. فَندب الفريقين للصلح أولاد سليمان وأولاد موسى وأولاد نَقِي بعد أن رَغبوا به فانتدبوا، فصالح بينهم صلحا مؤبدا ... وفرحوا به ورضوا به وقبلوه، وأحضر لذلك الفقهاء وأعيّان الرّكب وسَجَّل لذلك سِجلين بيد كل فريق سِجل وآخى بين أعيّانهم الذين عقدوا الصلح فتواخوا وتضايفوا تماما للعقدة[39].

كما كان لِرّكب الحج مُبشرين بقدومهم؛ وهو أيضا مظهر من مظاهر التواصل ويكون المبشر ضمن الحجاج، وغالبا ما يكون على ناقة مخف أو يكون خفيفا من الأعباء والحمولات يُبشر أهل البلد بوصول الحجاج وسلامتهم؛ وفي هذا يقول بن ناصر الدرعي: "...ودَفعنا كُتبا كتبناها لأهلنا إعلاما لهم بمجيئنا لبريد أبردناه من أصحابنا منصور بن محمد المزجيطي، فودعناه حين أضحينا على أكمة مصحوبا بسلامة وعافية، مع جماعة مبشرين أهالينا اغتناما لإدخال السرور على المؤمن؛ سيما الأهل والأقارب ..."[40].

5. خاتمة:

في ختام مقالنا هذا؛ نجد أنّ بن ناصر الدرعي في رِحلة رَكب حجه لسنة 1709-1710م تمكن من أن يعطيّنا مشاهدا حيّة وصورا ناطقة لنجود وتخوم صحراء الجزائر والتي لم تَكن تختلف في وصفها عن ما وجدناه في كتب الرحلات الحجازية الأخرى؛ إذ لم يغفل في تدوين مشاهداته بتسجيله لكل الأحداث التي صادفته في رحلته وتسجيل المراحل التي يَعبرها الحاج والمسّالك التي يمر منها ذهابا وإيابا، كما تحدث عن أهم المنازل التي نزل بها ركبه والرجال الذين التقى معهم، والذين كانوا في الغالب يُمثلون ممّن تجمعهم صُحبة ومودة معه أو مع والده، هذه الرابطة ساهمت في ترسيخ العلاقات الأسرية بين الجزائريين والمغاربة ودعمت الروابط الاجتماعية من خلال الاحترام المتبادل بينهما.

كما تضمنت رحلته الكثير من الأخبار والمعلومات عن مختلف القبائل القاطنة بنجود وتخوم صحراء الجزائر تخص عاداتهم وتقاليدهم ومستوياتهم العلمية والحضارية وكثير من أخبارهم السياسية والدينية والاقتصادية والعمرانية دوّنها تخليدا لأثره أو تَنبيها وهِدايةً منه للحجاج الجدد القادمين بعده إلى بيت الله الحرام عبر هذه الجهات والتي كانت تُمثل حلقات مُهمة في التواصل الحضاري بينها وبين المغرب الأقصى بصفة خاصة؛ والذي عكسته روح التضامن والتآزر التي أظهرها أهاليها للحجاج لما كانوا يُكابدونه من المعاناة والصعاب وهم في طريقهم أثناء رحلتهم إلى الحج. لقد ترك لنا بن ناصر الدرعي من خلال كتابه الموسوم: "الرحلة"؛ رصيدا علميا مهما ذا قيمة كبيرة في التاريخ والجغرافيا؛ لذا نقترح بإنجاز دراسات وأبحاث تشمل كُتب الرحلات الحجيّة عبر العصور المختلفة لما تحتويه من فوائد جليلة متعددة ومتنوعة.

6. قائمة المصادر:

- الدرعي أبو مدين، الرحلة الحجازية، مخطوط ق297، المكتبة الوطنية، الرباط.
- الهشتوكي أبو العباس، الرحلة الحجازية، مخطوط ق147، المكتبة الوطنية، الرباط.
- الهلالي أحمد، التوجه لحج بيت الله الحرام، مخطوط بدون رقم التصنيف، خزانة سيدي عبد الله البلبالي، كوسام، أدرار.
- الإفراني محمد، صفوة من انتشر من أخبار صلحاء القرن الحادي عشر، تقديم وتحقيق عبد المجيد خيالي،

ط.1، مركز التراث الثقافي المغربي، الدار البيضاء، المغرب، 2004م.

- السملالي العباس بن براهيم، الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، ج1، ط.2، المطبعة الملكية، الرباط، 1413هـ-1993م.

- العياشي عبد الله، الرحلة العياشية 1661–1663م، تحقيق وتقديم سعيد الفاضلي وسليمان القرشي، مج2، ط.1، دار السويدي، الإمارات العربية المتحدة، 2006.

- بن ناصر الدرعي، الرحلة الناصرية 1709–1710م، تحقيق وتقديم عبد الحفيظ ملوكي، ط.1، دار السويدي للنشر والتوزيع، الإمارات العربية المتحدة، 2011.

7. هوامش:

[1] بن ناصر الدرعي، **الرحلة الناصرية 1709–1710م**، تحقيق وتقديم عبد الحفيظ ملوكي، ط.1، دار السويدي للنشر والتوزيع، الإمارات العربية المتحدة، 2011، ص ص 19، 33.محمد الإفراني، **صفوة من انتشر من أخبار صلحاء القرن الحادي عشر**، تقديم وتحقيق عبد المجيد خيالي، ط.1، مركز التراث الثقافي المغربي، الدار البيضاء، المغرب، 2004م، ص 365. العباس بن براهيم السملالي، **الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام**، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، ج1، ط.2، المطبعة الملكية، الرباط، 1413هـ-1993م، ص ص 357–358.

[2] المصدر نفسه، ص ص 124-130، 716. الدرعي أبو مدين، **الرحلة الحجازية**، مخطوط ق297، المكتبة الوطنية، الرباط، ص 58. الهلالي أحمد، **التوجه لحج بيت الله الحرام**، مخطوط بدون رقم التصنيف، خزانة سيدي عبد الله البلبالي، كوسام، أدرار، ص 8.

[3] المصدر نفسه، ص ص 129، 134، 712.

[4] المصدر نفسه، ص 123.

[5] المصدر نفسه، ص 124.

[6] المصدر نفسه، ص ص 124، 128.

[7] المصدر نفسه، ص 134.

[8] المصدر نفسه، ص ص 123. الهشتوكي، **الرحلة الحجازية**، مخطوط ق147، المكتبة الوطنية، الرباط، ص 96.

[9] المصدر نفسه، ص ص 127-133، 158-159.

[10] المصدر نفسه، ص 715.

[11] المصدر نفسه، ص 710.

[12] المصدر نفسه، ص 711.

[13] المصدر نفسه، ص 717.

[14] المصدر نفسه، ص 713.

[15] المصدر نفسه، ص 711.

[16] المصدر نفسه، ص ص 133-718.

[17] المصدر نفسه، ص 718.

[18] المصدر نفسه، ص 134.

[19] المصدر نفسه، ص ص 715 -716. أحمد الهلالي، المصدر السابق، ص 5. الدرعي، المصدر السابق، ص 61.

[20] المصدر نفسه، ص ص 714، 717، 719. الهشتوكي، المصدر السابق، ص 96.

[21] المصدر نفسه، ص ص 129، 709. أحمد الهلالي، المصدر السابق، ص 5. الدرعي، المصدر السابق، ص 61.

[22] بن ناصر الدرعي، المصدر نفسه، ص 722.

[23] المصدر نفسه، ص 724.

[24] المصدر نفسه، ص ص 127، 129، 712-717.

[25] المصدر نفسه، ص ص 731–732.

[26] المصدر نفسه، ص ص 160، 731-732.

[27] المصدر نفسه، ص ص 133، 709-721.

[28] المصدر نفسه، ص ص 718–719.

[29] المصدر نفسه، ص 721.

[30] المصدر نفسه، ص ص 126، 131.

[31] العياشي، المصدر السابق، مج2، ص 540.

[32] بن ناصر الدرعي، المصدر السابق، ص ص 130-133، 138، 712.

[33] العياشي، المصدر السابق، مج2، ص 521.

[34] بن ناصر الدرعي، المصدر السابق، ص 140.

[35] المصدر نفسه، ص ص 140-142.

[36] المصدر نفسه، ص ص 711–712، 720-724.

[37] العياشي، المصدر السابق، مج2، ص 542.

[38] بن ناصر الدرعي، المصدر السابق، ص ص 131، 134، 158.

[39] المصدر نفسه، ص ص 130-131، 716، 725-726.

[40] المصدر نفسه، ص 722.